عاشوراء واستراتيجية التغيير

الدكتور محمد شقير

لقد جاء الدين من أجل سعادة الإنسان، وجاءت معه مجموعة من القيم والمبادئ والأفكار والعقائد والأحكام، كل هذه الأمور هي من أجل أن تعمل على تغيير حياة الإنسان نحو الأفضل سواءً على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي وفي جميع المجالات التي ترتبط بحياة الإنسان من قريب أو بعيد مما يتصل بفعل الهداية أو النظم الاجتماعي وتنظيم المجتمعات.

كل هذه الأهداف والغايات قد جاء النص الديني ليدفع الإنسان نحوها ونحو التغيير من خلال فعل الاقناع الذي يراود ذهنه وفعل الإرادة الذي يراود عزمه، أي إن البيان النصي الديني يدفع في جميع تجلياته بالإنسان نحو التغيير للأفضل والأحسن بهدي من تعاليمه وتوجيهاته.

لكن سؤالاً أساسياً يرتسم في هذه النقطة بالذات وهو إذا كان الدين يعني بفعل التغيير أليس من الجدير أن يكون التعبير الديني الدافع للتغيير تعبيراً حيوياً وأن تكون الاليات اليات عملانية وأن يكون الفعل البشري المتمثل في الواقع الاجتماعي والسياسي هو الفعل المبين لتلك المعاني والقيم الدينية؟

هنا نستطيع القول إنه لا شك أن تجلي المعاني الدينية في البيان النصي له أثره، لكن لا شك أيضاً أنه إذا تجلت تلك المعاني الدينية في البيان الفعلي (السلوك البشري) فإن لها أثراً أكبر وأقوى، باعتبار أن هذا السلوك يستطيع أن يبرز أكبر قدر ممكن من تلك المعاني وبأرقى مستوى من مراتب ظهورها وتجليها، كما أن هذا السلوك هو أقوى وأفعل على مستوى مؤثريته، كما أنه يستطيع أن يكون أصدق تعبيراً من جهة أنه يخوض التجربة ويثبت صدقيتها، ليكون التعبير الديني تعبيراً فعلياً وهو ثقيل المؤونة، مقابل التعبير القولي والذي هو خفيف المؤونة؛ وبالتالي نستطيع القول إن المعاني الدينية كلما تجلت في الواقع الاجتماعي والسلوك البشري كلما أدت دورها في فعل التغيير أكثر وبشكل أفعل مقارنة مع البيان القولي والنص اللفظي.

ومن هنا كانت عاشوراء لتكون تعبيراً أبلغ عن المعاني الدينية ولتشكل دافعاً قوياً للتمسك بمعاني الشهادة وقيم التضحية والايثار والدفاع عن الحق والذود عن الدين ومقارعة الفساد وممارسة الاصلاح، وليكون الحدث العاشورائي منطلقاً قوياً للتفاعل مع جميع تلك المعاني والقيم والتماهي معها ونبراساً تتجلى فيه المعاني الدينية بأرقى مستوى وأصدق تعبير.

ولذا فإن شهادة الحسين (ع) حكت الإسلام وأبرزت معانيه وجعلته يتجلى في الواقع البشري فعلاً صادقاً وسلوكاً معبراً وعطاءً يحكي قداسة القضية وعظمة الدين.

ولقد كشفت عاشوراء أمراً اخر لا يقل أهمية عن إبرازها بشكل فاعل لمعاني الدين ألا وهو: في عصر أصبح الدين في خطر وأصبحت رسالة الإسلام عرضة للتحريف، حيث أصبح الفساد يمارس باسم الدين وانتهاك الحرمات باسم شريعة سيد المرسلين، ففي هذا الظرف الذي عز فيه النصير وغدا ثمن الاصلاح فيض الدماء وبذل الغالي والنفيس؛ أصبح واضحاً أنه لن يقدم على هذا المشروع الاصلاحي وعلى فعل الشهادة إلا من كان حريصاً على الدين وعلى حفظ رسالة محمد (ص) من التحريف، ومن كان يرى أن استمرار الدين أغلى من دمه وكان مستعداً لبذل كل ما لديه من أجل ممارسة الاصلاح وفعل الهداية.

لقد أبرزت شهادة الحسين (ع) وبالأحمر القاني الكثير من القيم والمعاني الدينية بأروع تجلياتها وأجمل تعابيرها، وفي الوقت نفسه أظهرت تلك الشهادة أن صاحبها وهو الحسين (ع) هو من كان في ذاك العصر الحامي للدين والرائد في الإصلاح والنصير للحق ومن يمتلك الانتماء الحقيقي والعميق لذاك الدين وإن كل تلك القيم والمبادئ تستحق أن يبذل من أجلها المهج والأرواح.

ومن هنا حق أن نقول أن أمة كان فيها الحسين وكانت فيها عاشوراء هي أقدر على التفاعل مع تلك المعاني والمضامين التي أبرزتها عاشوراء لأنها رأتها حية تتحرك في ساحة كربلاء ورأتها تنطق بلغة لا محل فيها للكذب أو المزاح.

وجدير القول أن الدين يحتاج إلى رجال ينطقون به وينطق بهم، يتجلى بهم الدين وتظهر بهم معانيه، يفصحون عنه بأفعالهم وتحكيه جوارهم، إن أقدم أقدموا وإن أحجم أحجموا، تماهوا بالدين

وتماهى بهم، يعرف وبه عرفوا فهم أئمته وحملة العلم فيه، المعبرون عنه بحركاتهم وسكناتهم فضلاً عن شهادتهم والام المحن.

وبناء على ما تقدم فإن الدين الهادف إلى التغيير يستطيع أن يقوم بالمهمة كلما تجلت معانيه أكثر وكلما ظهرت بشكل أصدق تعبيراً، ومن هنا كانت عاشوراء محطة أساسية ورئيسية في عملية التغيير، ليس فقط في حماية الدين وحفظه وممارسة الاصلاح، بل أيضاً في إبراز معانيه وقوة تجلياته وصدق تعابيره ومؤثرية مضامينه، ولذا فإن الاحتفال بعاشوراء ليس إلا مناسبة لاعادة اظهار الدين وابراز معانيه نقياً صافياً صادقاً جلياً كما ظهر في ساحة كربلاء وفصول الملحمة. من هنا كانت عاشوراء محاولة لاعادة استحضار كل تلك المعاني الصادقة والقيم السامية من أجل التماهي معها والتفاعل مع عبرها والتأثر بدلالاتها؛ إن مناسبة عاشوراء فعل لفهم الإسلام كما نطقت به دماء الحسين وللتربي على معانيه كما أرادت ثورته ولتلقي تعاليمه كما تجلت في مدرسته.

إن عاشوراء هي مدرسة للإسلام كما أراده محمد (ص) وكما عبر عنه الحسين (ع) نقياً طاهراً بعيداً عن الرجس والدنس، عاشوراء مدرسة احتضنها التاريخ بفعل الشهادة أستاذها حفيد لرسول اللّٰه (ص) لُبَنُها الأحمر القاني وعطاؤها لا ينضب وإن كرّ الأبيضان.

ولذا كانت عاشوراء مدرسة ومحطة للتغيير نحو الأفضل كما أراده الإسلام وجميع الرسالات السماوية فينبغي أن تكون عاشوراء ثروة ليس فقط لجميع المسلمين بل لجميع بني الإنسان يعملون على قراءتها وفهم معانيها ورسالتها بهدف التغيير والاصلاح ومقارعة الفساد.